﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣﴾ [الأنعام: 83]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرَّبـطُ بين محاجَّةِ إبراهيمَ لقومِهِ وبيانِ حُـجَّـةِ الـلـهِ لـلـنَّـاس على لسانِهِ وشرعِهِ

لمّا انتهَت محاجَّةُ إبراهيمَ لقومِه، ممَّن كانوا يعبدونَ الأوثانَ والكواكبَ والنُّجومَ، وقد كانَت محاجَّةً بينَ حكمِ العقلِ، وحكمِ الأصنامِ، بيَّن ﷺ أنَّ حجَّةَ إبراهيمَ، هي حجَّةُ العقلِ، وهي الجديرةُ بأن تنسبَ إلى اللهِ تعالى، فقال: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾[1]، وهي حجَّةُ اللهِ الدَّامغةُ، على وجودِ اللهِ ووحدانيَّتِهِ وعظمتِه، أرشدَ إليها إبراهيمَ عليه السلام ليوجِّهَها إلى قومِهِ، وهم يجادلونَهُ في ربِّه الحكيمِ العليمِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حُجَّتُنَآ﴾: (حجج)، أصلٌ يدلُّ على القصدِ، والحُجَّةُ: البرهانُ، مُشتقَّةٌ من هذا؛ لأنَّها تُقصَد، أو بها يُقصَد الحقُّ المطلوب، يقالُ: حاججتُ فلانًا فحجَجْتُهُ؛ أي: غلبتُهُ بالحجَّة، وذلكَ الظَّفرُ يكونُ عندَ الخصومةِ، والجمعُ: حُجَجٌ، والحُجَّة: هي الكلامُ المستقيمُ[3]، قولهُ تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ﴾ أطلقَها على "ما جرى بينَه وبينَ قومِهِ منَ الاستدلالِ على حدوث الكواكبِ والقمرِ والشَّمسِ"[4]، فالمرادُ طريقةُ الاستدلالِ.

2) ﴿دَرَجَٰتٖ﴾: (درج) أصلٌ يدلُّ على مُضيِّ الشَّيءِ، والمُضيِّ في الشَّيءِ؛ والدَّرجةُ تقالُ للمنزلةِ إذا اعتُبِرت بالصُّعودِ دونَ الامتدادِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2571.
(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 873.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (حجّ، حجج).
(4) ابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 98.

على البسيطةِ، كَدَرَجةِ السَّطحِ والسُّلَّمِ، ويُعبَّرُ بها عنِ المنزلةِ الرَّفيعةِ[1]؛ والدَّرَجَةُ جمع: دَرَجاتٍ، وهي: رتبةٌ ومنزلةٌ في الشَّرفِ، ومرتبةٌ منَ المراتبِ؛ والجَنَّةُ دَرَجَاتٌ، وَالنَّارُ دَرَكَاتٌ، قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: 228]، وفسَّرُوها بأنَّ الدَّرجةَ هنا هي الصَّداقُ أو حقُّ التَّأديبِ أو غير ذلك"[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبرُ تعالى أنَّ "تلك الحُجَّة، وهي قولُه: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ - الَّتي غلبَ إبراهيمُ بها قومَه، حتَّى انقطعَت حجَّتُهم -، هي حجَّتُنا، وفَّقْناه لمُحاجَّةِ قومِهِ بها، وأعطيناه إيَّاها، نرفعُ مَن نشاءُ مِن عبادِنا مراتبَ في الدُّنيا والآخرة، إنَّ ربَّكَ - أيُّها الرَّسول ﷺ - حكيمٌ في خَلقِهِ وتدبيرِهِ، عليمٌ بعبادِهِ"[3].

حُجَّةُ اللهِ في بلاغِ إبراهيمَ على قومِهِ، وهو الرَّافعُ مَن يشاءُ بحكمتِهِ وعلمِهِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ عطفِ جملةِ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ على جملةِ: ﴿وَحَآجَّهُۥ﴾:

قولُهُ جلَّ شأنُه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ معطوفٌ على الجملةِ في قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾[4]، فعطفَ الحجَّةَ الَّتي آتاها اللهُ تعالى لإبراهيمَ عليه السلام على المحاجَّةِ بين إبراهيمَ وقومِهِ؛ إظهارًا لنعمةِ اللهِ تعالى عليه؛ فإنَّ احتجاجَهُ إنَّما هو بتأييدِ اللهِ تعالى وتوفيقِهِ، ومَن حظيَ بتأييدِ اللهِ تعالى قويَت حجَّتُهُ، واستبانَت محجَّتُهُ، فتهاوَت أمامَها الأباطيلُ، وتلاشَتْ دونَها الضَّلالاتُ؛ لأنَّها حجَّةُ اللهِ القاطعةُ الَّتي تستمدُّ قوَّتَها النَّافذةَ، وحكمتَها الرَّاشدةَ مِن عظمةِ المولى وقدرتِهِ وسلطانِهِ.

الاحتجاجُ للحقِّ بالحقِّ تأييدٌ منَ اللهِ تعالى

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (درج).
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (درج).
(3) جماعة منَ العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/138.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/334.

فائدةُ اسمِ الإشارةِ في قولِهِ: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ﴾:

تعظيمُ الحُجَّةِ المأتيَّةِ لإبراهيمَ، وبيانُ مكانتِها في تأييدِ الحقِّ

اسمُ الإشارةِ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ﴾، يشيرُ "إلى جميعِ ما احتجَّ بِهِ إبراهيمُ عليه السلام على قومِهِ من قولِهِ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ [الأنعام: 76] إلى قولِهِ: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾"[1]، وقد آثرَ النَّظمُ اسمَ الإشارةِ الدَّالَّ على البعدِ، "لتفخيمِ شأنِ المُشارِ إليه، والإشعارِ بعلوِّ طبقتِهِ، وسموِّ منزلتِهِ في الفضلِ"[2]، ولمّا ذكرَ الكثيرَ منَ الحججِ ناسبَهُ الإشارةُ بالبعيدِ، وفيه إظهارٌ لعظمِ الفكرِ، وقوَّةِ الاستدلالِ[3].

فائدةُ التَّعريفِ بالإضافةِ إلى ضميرِ العظمةِ في: ﴿حُجَّتُنَآ﴾:

إضافةُ الحجَّةِ إلى اللهِ تعالى تشريفٌ لها، وتَعظيمٌ لإبراهيمَ

في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ﴾، أضافَ الحجَّةَ إلى الضَّميرِ المُعبِّرِ عنِ التَّعظيمِ؛ إذ فيه منَ التَّفخيمِ والتَّشريفِ ما لا يخفى[4]، وفي ذلك تعظيمٌ لإبراهيم عليه السلام، وأحسنَ البقاعيُّ في الكشفِ عن وجهِ التَّعظيمِ، فقالَ: "وعظَّمَهُ بتعظيمِها، فقال: ﴿حُجَّتُنَآ﴾؛ أي: الَّتي يَحِقُّ لها بما فيها منَ الدّلالةِ أن تُضافَ إلينا؛ لأنَّها من أشرفِ النِّعمِ وأجَلِّ العطايا"[5]، فدلَّت تلك الإضافةُ على علوِّ مكانتِها وشأنِها، وصدقِها وصحَّتِها، وتضمَّنَت تشريفًا لَمَن أجراها على لسانِهِ وقلبِهِ[6]، أي: ﴿ءَاتَيۡنَٰهَآ﴾؛ "أي: بما لنا منَ العظمةِ"[7].

التَّعبيرُ عنِ الحُجَّةِ بالإيتاءِ:

الحجَّةُ منَ الظُّهورِ، بحيثُ إنَّها تُؤتَى إيتاءً، وكان ذلك بتفضُّلٍ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/43، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/572، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/334.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/156 - 157، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/168.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2571.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/572، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/157.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/168.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2571، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/335.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/168.

منَ اللّهِ تعالى بـ "إلهامهِ إيَّاها، وإلقاءِ ما يعبِّرُ عنها في نفسِه"[1]، قولُه: ﴿ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ "يَدُلُّ على أنَّ تلك الحُجَّةَ، إنَّما حَصَلَتْ لإبراهيمَ عليه السلام بإيتاءِ اللّهِ وإظهارِهِ تلك الحُجَّةِ في عَقلِهِ، وذلك يَدُلُّ على أنَّ الإيمانَ والكُفرَ لا يَحصُلانِ إلَّا بخَلقِ اللّهِ تعالى، ويؤكِّدُه قولُه: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾، فإنَّ المرادَ أنَّه تعالى رَفَعَ درجاتِ إبراهيمَ، بسببِ أنَّه تعالى آتاه تلك الحُجَّة، ولو كان حُصُولُ العِلمِ بتلك الحجَّةِ من قبلِ إبراهيمَ، لا من قِبَلِ اللّهِ تعالى؛ لكان إبراهيمُ عليه السلام هو الَّذي رفعَ درجاتِ نفسِه"[2]، وهذا غيرُ معقولٍ، فإنَّ الإشادةَ برفعِ الدَّرجاتِ إنَّما عَظُمَ شأنُها لأنَّها أُوتِيَها إبراهيم حجَّةً قاطعةً، وبرهانًا ساطعًا، منَ اللّهِ العليِّ الأعلى.

الإيتاءُ على قدرِ المُؤتي، وهو كاشفٌ عن مَنزلةِ مَن أُوتي

نكتةُ تقديمِ المفعولِ الثّاني على المفعولِ الأوّل:

قدَّمَ الضَّميرَ العائدَ على الحجَّةِ في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، ولم يقُل: (آتينا إبراهيمَ إيَّاها)؛ لأنَّ السِّياقَ في الحجَّةِ، وفي الإنعامِ على إبراهيمَ بعدَ ذلك، فهي الأولى بالتَّقديمِ للاهتمامِ بها، "والمرادُ بالحجَّةِ جنسها، لا فردٌ من أفرادِها؛ أي: وتلكَ الحجَّةُ الَّتي تضمَّنها ما تقدَّمَ منَ المقالِ، البعيدةُ المرمى في إثباتِ الحقِّ، وتزييفِ الضَّلالِ، هي حجَّتُنا البالغةُ الَّتي لا تنالُ إلَّا بهدايتِنا السَّابغةِ، أعطيناها إبراهيمَ حجَّةً على قومِهِ مُستعليةً عليهم، قاطعةً لألسنتهم"[3]، وقد جاءَت مُستدلًّا عليها بالضَّميرِ المتَّصلِ بالفعلِ، وهي مفعولٌ ثانٍ، وتَقَدُّمُهُ موقعيًّا مُسوَّغٌ؛ لأنَّه ضميرٌ مُتَّصلٌ، والمفعولُ الأوَّلُ اسمٌ ظاهرٌ، واللُّجوءُ إلى هذا التَّرتيبِ، هو الَّذي أعطى السِّياقَ دلالتَهُ، حيث كان الغرضُ أنَّ

الحجَّةُ هي مدارُ السِّياقِ، فَحُقَّ التَّنويهُ بأهمِّيَّتِها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/335.
(2) ابن عادل، اللّباب: 8/260.
(3) رضا، تفسير المنار: 7/485.

الاهتِمامَ منوطٌ بالحجَّةِ الَّتي أُوتيها إبراهيم، فكان تقدُّمُها على شكلِ ضميرٍ أولى وأجدى.

سرُّ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ في قوله: ﴿عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ﴾:

الحجَّةُ الباهِرَةُ تُعلي أهلَ الحقِّ على أهلِ الباطِلِ

في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ﴾ عبَّر بحرفِ الاستعلاءِ المتعلِّقِ بـ ﴿حُجَّتُنَآ﴾ للتَّنبيه على "ارتفاعِ شأنِها بأداةِ الاستعلاءِ مُضَمِّنًا لـ (آتينا) و(أقمنا)، فقال: ﴿عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ﴾؛ أي: مُستَعلِيًا عليهم، غالبًا لهم، قائمةً عليهم الحُجَّةُ الّتي نَصَبَها"[1]، "وعلى: للاستعلاء المَجازِيِّ، وهو تشبيهُ الغالِبِ بالمُستَعلِي المُتَمَكِّنِ منَ المغلوبِ، وهي مُتعلِّقَةٌ بحُجَّتِنا خلافًا لمَن مَنَعَهُ"[2]، "لقد أعطى اللّهُ سبحانَه إبراهيمَ الحُجَّةَ على قومِه؛ أي: كانت له عليهم درجاتٌ وسموٌّ وارتفاعٌ؛ لأنَّ إقامةَ الحجَّةِ على الآخرِ انتصارٌ، والانتصارُ رفعٌ لدرجةِ موضوعِكَ، ورفعٌ أيضًا لموضوعِ عملِكَ"[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بضميرِ العظمة في: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾:

قيمةُ الحُجَّةِ في الدَّلالةِ على قدرِها، وقدرِ مَن أُوتيها

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾، إمَّا أن يكونَ حالًا منَ الضَّميرِ (نا)، ويكون المعنى: رافعين درجةَ مَن نشاءُ، فيكون قيدًا محدِّدًا لإيتاءِ الحجَّةِ مُنبِّهًا على أثرِها ومنزلتِها، ويمكن أن يكونَ استئنافًا "لبيانِ أنَّ مثلَ هذا الإيتاء تفضيلٌ للمُؤتَى، وتَكرِمَةٌ له"[4]، والوجهان مُتعانقان في التَّظاهرِ على بيانِ منزلةِ الحجَّةِ، ومنزلةِ مَن أُوتيها، وقد عبَّرَ عن رفعِهِ الدَّرجاتِ بالفعلِ المضارعِ بصيغةِ الجمعِ الدَّالَّةِ على التَّعظيمِ إظهارًا لعظيمِ فضلِه، فقد آثرَ التَّعبيرَ بصيغةِ الجمعِ في الفعلِ؛ لأنَّه أرادَ الزِّيادةَ "في الإعلامِ بفضلِهِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/168، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/335.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/335.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3766.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/335.

بقولِه مُستأنِفًا: ﴿نَرۡفَعُ﴾؛ أي: بعظمتِنا"[1]، وهذا المعنى يفوتُ لو عبَّرَ بصيغة المفردِ (أرفع)، وقد بُنِيَتِ الآيةُ مِن أوَّلِها على التَّعظيمِ.

بلاغةُ الاستعارةِ بالتّعبير برفعِ الدَّرجاتِ:

المجازُ يصوِّرُ الدَّرجاتِ، ويحقِّقُ علوَّها

جُبِلَ الإنسانُ على تفضيلِ جهةِ العلوِّ والارتفاعِ، لذلك جاءَ المدحُ بالرِّفعةِ والعلوِّ، والشَّرفِ والظُّهورِ، وجاءَ الذَّمُّ بنقيضِه كالأسفلِ وغيرِه، وفي الآية أرادَ بيانَ تفضيلِه تعالى لإبراهيمَ ﷺ، فالدَّرجاتُ تعني: "مراتبَ ومنزلةَ مَن نشاءُ، وأصلُ الدَّرجاتِ في المكانِ، ودلالةُ السِّياقِ أنَّه بالحجَّةِ والبيانِ"[2]، والمرادُ من ذلك الإخبارُ عن تفضيلِ الشَّأنِ[3]، وجاء لفظُ الدَّرجاتِ جمعًا، وذلك للتَّناسب مع دلالةِ قولِه: ﴿مَّن نَّشَآءُ﴾ على الكثرةِ، والكثرةُ تقتضي التَّفاوتَ، و"الإتيانُ بصيغةِ الجمعِ في درجاتٍ باعتبارِ صلاحيَّةِ ﴿مَّن نَّشَآءُ﴾ لأفرادٍ كثيرين مُتفاوتينَ في الرِّفعةِ"[4]، فلمَّا كان أهلُ الفضلِ هم المستحِقّين أن تُرفَعَ درجتُهم، كلٌّ بقدرِه وفضلِه، كانَتِ الدَّرجةُ متفاوتةً، فعبَّر بالجمعِ للدَّلالةِ على ذلك التَّفاوتِ.

تأخيرُ المفعولِ بِهِ في قولِهِ: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾:

الاعتناءُ بالمقدَّمِ تشويقٌ للمُؤخَّرِ

أخَّر المفعولَ، وهو قولُه تعالى: ﴿مَّن نَّشَآءُ﴾، وأصلُ الكلامِ: (نرفعُ مَن نشاءُ درجاتٍ)، وفائدةُ التَّأخيرِ: "الاعتناءُ بالمُقدَّمِ والتَّشويقُ إلى المُؤخَّرِ"[5]، فالتَّعجيلُ بذكرِ الدَّرجات تنويهٌ بمكانتِها واهتمامٌ بها، وفي تأخيرِ المفعول به تشويقُ السَّامعِ لمعرفةِ مَن ذا الّذي نالَ رفعةَ الدَّرجاتِ، "والدَّرجاتُ في الأصلِ تُطلَقُ على مراقي السُّلَّمِ، والمرادُ بها هنا المراتبُ المعنويَّةُ في الخيرِ على سبيلِ التَّمثيلِ، فقد شُبِّهَت

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/168.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/572.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/335.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/336.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/157.

حالةُ المفضَّلِ على غيرِهِ، بحالِ المُرتقي في سلَّمٍ؛ إذا ارتفعَ من درجةٍ إلى درجةٍ"[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالموصولِ، والعدولِ عنِ الضَّميرِ إليه:

عبَّر بالاسمِ الموصولِ ﴿مَّن﴾ الدَّالِّ على التَّعميمِ والشُّمولِ، نفيًا لاختصاصِ رفعِ الدَّرجاتِ بالَّذين ذُكِروا في السِّياق؛ فاللَّهُ تعالى لا يشاءُ رفْعَ الدَّرجاتِ للأنبياءِ وذرِّيَّتِهم وحسب، ولكنَّه يرفعُ درجاتِ الصَّالحينَ من عبادِهِ، وعلى رأسِهم الأنبياءُ المصطفون، ومنهم أولو العزمِ منَ الرُّسلِ، وفي مقدِّمَتِهم الخليلُ إبراهيم عليه السلام، ولعلَّ مِن رفْعِ الدَّرجاتِ ما أوتيه إبراهيمُ "حجَّةً له على قومِهِ، ولا غرابةَ في ذلك، فاللَّهُ يرفعُ مَن يشاءُ من عبادِهِ درجاتٍ، بعضها فوق بعضٍ، فهذه درجةُ الإيمانِ، وأخرى درجةُ العلمِ، وثالثةٌ درجةُ الحكمةِ والتَّوفيقِ، وذلك فضلُ اللَّهِ يؤتيه مَن يشاءُ"[2]، كما أنَّه عبَّرَ بالموصولِ دونَ الضَّميرِ، فلم يقُل: (نرفعُ درجاتِهم)؛ تأسيسًا لِمَا سيأتي؛ أي: فعدلَ إلى الموصولِ ليبنيَ عليهِ القيدَ الآتيَ في الصِّلةِ.

فضلُ اللهِ واسعٌ عميمٌ، وعطاؤُه سخيٌّ كريمٌ

دلالةُ تقييدِ الرَّفعِ بالمشيئةِ:

قولُهُ تعالى: ﴿مَّن نَّشَآءُ﴾ دلَّ "على أنَّ هذا التَّكريمَ لا يكونُ لكلِّ أحدٍ؛ لأنَّه لو كان حاصلًا لكلِّ النَّاسِ؛ لم يحصلِ الرَّفعُ ولا التَّفضيلُ"[3]، فلو رفعَ كلَّ النَّاسِ لفاتَ التَّفاضلُ ولغابَ التَّحفيزُ، واستوى الفاضلُ والمفضولُ، وزهدَ المجدُّ عنِ الطُّموحِ إلى مراقي التَّميُّزِ والسُّموقِ، وفي ذلك قتلٌ لروحِ المبادرةِ الإيجابيَّةِ الَّتي قاعدتُها: (على قدرِ المشقَّةِ يكونُ الأجرُ)، و(على مقدارِ المبادراتِ تكونُ الدَّرجاتُ).

الرَّفعُ بمشيئتِهِ تعالى عزيزٌ، لا ينالُه إلَّا مَنِ اصطفاهُ اللهُ

إيثارُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿نَرْفَعُ﴾:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعلِ المضارعِ: ﴿نَرْفَعُ﴾؛ "للدَّلالةِ

(1) طنطاويّ، الوسيط: 5/118.
(2) الحجازيّ، التّفسير الواضح: 1/635.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/336.

عَلى أنَّ ذلكَ سُنَّةٌ مُستمِرَّةٌ جاريةٌ، فيما بين المُصطَفَيْنَ الأخيارِ، غيرُ مُختصَّةٍ بإبراهيمَ ﷺ"[1]، فلو عبَّرَ بالفعلِ الماضي (رفعنا) لكان رفعًا مُنقطعًا مُختصًّا فيمَن سيقَ له الكلام، ولكنَّ اللّهَ تعالى مُتفضِّلٌ على عباده في كلِّ زمانٍ، فعبَّرَ بالفعلِ المضارعِ؛ "لتجدُّدِ الرِّفعةِ المُستمرَّةِ، فالوجودُ الإنسانيُّ يستمرُّ الخيرُ فيه، بوجودِ الهداةِ المرشدينَ، والمُستمعينَ الأخيارِ الَّذين يستمعونَ، فيقولون: سمعنا وأطعنا"[2].

تجدُّدُ الرِّفعةِ سُنَّةٌ من سننِ اللهِ تعالى في عبادِهِ

بلاغةُ تنوُّعِ القراءاتِ القرآنيَّةِ في لفظِ ﴿دَرَجَٰتٍ﴾:

قرأَ نافعٌ وابنُ كثيرٍ، وأبو عمرو وابنُ عامر: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَن نَّشَآءُ﴾ - بغير تنوينٍ - بإضافة الدَّرجاتِ إلى ﴿مَن﴾، وقرأَ عاصمٌ وحمزة والكسائيُّ: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾؛ فمَن قرأَ بالتَّنوين فقد أوقعوا الفعلَ على ﴿مَّن﴾، والتَّقدير: (ونرفعُ مَن نشاءُ إلى درجاتٍ)، ومَن قرأَ بالإضافةِ فقد أوقعَ الفعلَ على الدَّرجاتِ؛ لأنَّ الدَّرجاتِ إذا رُفعَت فقد رُفِعَ صاحبُها، فالقراءتان مُتقاربتان؛ لأنَّ مَن رُفِعت درجاتُه فقد رُفِعَ، ومَنْ رُفِعَ فقدْ رُفِعَتْ درجاتُه، فالمعنى المقصودُ بهما واحدٌ[3]، كما أنَّ الإضافةَ تدلُّ على تمكُّنِهم منَ الدَّرجاتِ؛ "فإضافةُ الدَّرجاتِ إلى اسمِ الموصولِ، باعتبارِ مُلابسةِ المُرتَقِي في الدَّرجةِ لها؛ لأنَّها إنَّما تُضافُ إليهِ إذا كانَ مُرتَقيًا عليها"[4]، والقراءتانِ تآزرتا في الدِّلالةِ على حصولِ الرَّفعِ للدَّرجاتِ على حِدةٍ، ولصاحبها على حِدةٍ، فهو رفْعٌ لمرفوعِ القدر.

تعانقُ معنى الرَّفعِ للدَّرجاتِ، ورفعِ أصحابِها كأنَّهما عطاءانِ

بلاغةُ شبهِ كمالِ الاتِّصالِ في: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾:

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ استئنافٌ سِيقَ لتعليلِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/157.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2572.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/316، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/30 - 31.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/335.

الـرَّفـعُ تكمنُ وراءَهُ حكمةُ الحكيمِ وعلمُ القديرِ

ما قبلَه[1]، فهو استئنافٌ تعليليٌّ؛ "لأنَّ قولَهُ: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ يثيرُ سؤالًا، يقول: لماذا يرفعُ بعضَ النَّاسِ دون بعضٍ؟ فأجيبَ بأنَّ اللهَ يعلمُ مُستحِقَّ ذلك، ومقدارَ استحقاقِهِ، ويخلقُ ذلك على حسب تعلُّقِ علمِهِ"[2]، واللهُ لا يُسألُ عمَّا يُفعلُ، فهو العليمُ بالسَّرائرِ، والمتحكِّمُ في المصائرِ، وحكمتُهُ ظاهرةٌ في كلِّ ما ينكشفُ لنا من تصرُّفِهِ في الكونِ، وهو في رفعِهِ للبعض درجاتٍ عالمٌ أنَّ ذلك يصلحُ لهم، وأنَّهم جديرون به، وخصوصًا الأنبياءَ الَّذين اصطفاهم، وميَّزَهم عن سائرِ النَّاسِ، وقد رفعَ بعضَهم فوقَ بعضٍ درجاتٍ، وهو ما يؤكِّدُهُ تعالى في قولِهِ: ﴿۞تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [البقرة: 253]، وهو القائلُ في مَعرِضِ التَّفضيلِ بين الفائزينَ من أهل الإيمانِ في مقاماتِ الجنانِ: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٥٤﴾ [المائدة: 54].

بلاغةُ تأكيدِ الخطاب معَ كونِ النّبيّ من الموقنين:

قولُه جلَّ شأنُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾، جاءَ مُؤكِّدًا لا بالنَّظر إلى حال المخاطَبِ؛ لأنَّ المخاطَبَ النَّبيُّ ﷺ، وهو لا يحتاجُ أن يخبرَ بذلكَ على وجهِ التَّأكيدِ، بل جاءَ التَّأكيدُ بالنَّظر إلى قوَّةِ الخبرِ، وكونِ اتِّصافِهِ ﷻ بالعلمِ والحكمةِ على غايةِ الاتِّصافِ.

قـوَّةُ المعنى في الخبرِ تقضي بأن يُساقَ مُؤكَّدًا

إيثارُ لفظِ الرُّبوبيَّةِ في قولِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بلفظ الرُّبوبيَّةِ دونَ عَلَمِ الجلالةِ (اللهِ)، المعبِّرِ عنِ الهيبةِ؛ لأنَّ السِّياقَ في بيانِ رعايةِ إبراهيمَ بإيتائِهِ الحجَّةَ، وتفضيلِهِ بها، إذ في ذلك "إظهارٌ لمزيدِ لُطفٍ وعنايةٍ به عليه السلام"[3]، ومقامُ العطاءِ والمنّةِ يُناسبُ التَّعبيرَ بالرَّبِّ، لِمَا فيه من معنى التَّودُّدِ والإشفاقِ،

الرُّبوبيَّةُ اعتناءٌ، ولُطفٌ، وترفُّقٌ مـــنَ المـــولى، وعطف

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/157.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/336.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/157.

وما يحملُهُ من دلائلَ التَّرفُّقِ والإغداقِ، وهو قد أعطى إبراهيمَ منَ الحجَّةِ البالغةِ، والحمايةِ السَّابقةِ، والنِّعَمِ السَّابغةِ، وجعلَهُ خليلَ الرَّحمنِ، ورزقَهُ امتدادَ ذكرٍ في أبنائِهِ وأحفادِهِ، منَ الأنبياءِ الكرامِ، والرُّسلِ العظامِ، فكانَ ذلك الإكرامُ كلُّه بعضًا من مظاهرِ التَّجلِّي في معاني الرُّبوبيَّةِ السَّاميَةِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

دلالةُ إضافةِ لفظِ الرَّبِّ إلى ضميرِ النّبيّ ﷺ:

في الإضافةِ اعتناءٌ بالمضافِ، وإظهارٌ لقربِهِ منَ المولى تعالى

أضافَ تعالى لفظَ الرَّبِّ في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ إلى ضميرِ النَّبيِّ ﷺ اعتناءً به، وإظهارًا لعلوِّ مكانتِهِ وقربِهِ منَ المولى ﷻ، وقد خاطبَهُ بما مفادُهُ: "إنَّ (ربَّكَ) اللهَ الَّذي ربَّاكَ، وقامَ على نفسِكَ وعلى عقلِكَ، وَهَدى الأنفسَ فُجورَها وتقواها، وعلَّمَكَ ما لم تكن تعلمُ؛ عليمٌ بكلِّ شيءٍ، حكيمٌ يضعُ كلَّ شيءٍ بميزانٍ، ولهُ – فيما يشاءُ ويختارُ- الحكمُ والعبرُ البالغاتُ، تباركَ اللهُ ربُّ العالمين"[1].

بلاغةُ الالتفاتِ في قولِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾:

الالتفاتُ منَ الغيبةِ إلى المخاطَبِ تشريفٌ للمُخاطَبِ بكلامِ اللهِ تعالى

ضميرُ المُخاطَبِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، يحتملُ أن يكونَ لنبيِّنا ﷺ، وهو "التفاتٌ من ربٍّ كريمٍ إلى النَّبيِّ الكريمِ، وقد نازعَتهُ نفسُه، وهفَت به أشواقُهُ، إلى فضلِ اللهِ وإحسانِهِ الَّذي رأى آثارَهُ في إبراهيمَ عليه السلام .. فجاءَ قولُه سبحانَه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾؛ ليشعرَ النَّبيَّ أنَّه في ضيافةِ ربِّه، وكفى ما يلقاه الضَّيفُ الَّذي ينزلُ في ضيافةِ ربِّ العالمين"[2]، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ به إبراهيمَ عليه السلام، فإذا أريدَ به إبراهيمُ "فيكون من بابِ الالتفاتِ، والخروجِ من ضميرِ الغيبةِ إلى ضميرِ الخطابِ على سبيلِ التَّشريفِ بالخطاب"[3].

مناسبةُ الفاصلةِ لمضمونِ الآيةِ:

لمّا ذكرَ في صدرِ الآيةِ أنَّه يرفعُ درجاتِ مَن يشاءُ من عبادِهِ عقَّبَ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2752.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/228.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/573، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/157.

ختـمَ الآيـةَ بتنزيهِ أفعالهِ تعالى عنِ الخلوِّ مـنَ الـغـايـاتِ السَّاميةِ

في رأسِ الآيةِ، بأنَّه "إنَّما يرفعُ درجاتِ مَن يشاءُ، بمُقتضَى الحكمةِ والعلمِ، لا بمُوجبِ الشَّهوةِ والمُجازَفةِ، فإنَّ أفعالَ اللهِ مُنزَّهةٌ عنِ العبثِ والفسادِ والباطلِ"[1].

سرُّ تقديمِ الحكيمِ على العليمِ:

التَّفضيلُ لا يقعُ إلَّا بحكمةٍ منهُ تـعـالى قـائـمـةٍ على العلمِ

لمّا ذكرَ التَّفضيلَ في الآيةِ كان الأنسبُ أن يقدِّمَ في ختمِ الآيةِ في قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ وصفَ الحكمةِ؛ "لأنَّ هذا التَّفضيلَ مُظهِرٌ للحكمةِ، ثمَّ عُقِّبَ بـ ﴿عَلِيمٌ﴾؛ ليشيرَ إلى أنَّ ذلك الإحكامَ جارٍ على وفقِ العلمِ"[2]، "فلا يضعُ العلمَ والحكمةَ، إلَّا في المحلِّ اللَّائقِ بها، وهو أعلمُ بذلك المحلِّ، وبما ينبغي له"[3].

المتشابه اللّفظي:

العلاقةُ بينَ قولِه هنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ و﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾ [يوسف: 6]، أنّ آية الأنعامِ يسبقُها حديثٌ عمَّا دارَ بين إبراهيمَ عليه السلام وقومِه، حيثُ أرادَ إبراهيمُ عليه السلام أن يدلَّهم على توحيدِ الرُّبوبيَّةِ، حتَّى يتركوا ما هم فيه من عبادةِ الأصنامِ، ودلَّتِ الآياتُ على تفضيلِ الَّذين آمنوا - ولم يلبسوا إيمانَهم بظلمٍ؛ أي: بشركٍ - على الَّذين أشركوا باللهِ ما لم ينزِّلْ به سلطانًا، وعلى تفضيلِ إبراهيمَ على الّذين آمنوا، بل على غيرِه منَ الأنبياءِ والرُّسلِ الَّذين أتوا من بعدِه؛ لأنَّه أبوهم، وهم أولادُهُ وأحفادُهُ، وقد خصَّه اللهُ بما لم يخصَّ به أحدًا منهم، فقد أراه اللهُ ملكوتَ السَّماواتِ والأرضِ؛ فلمَّا كان السِّياقُ أكثرَ تعلُّقًا بالحكمةِ؛ ناسبَهُ تقديمُ (حكيم) على (عليم)، أمَّا الآيةُ في سورةِ يوسفَ فقد سبقَها حديثٌ عن علمِ يعقوبَ، فلمَّا كان السِّياقُ أكثرَ بالعلمِ؛ ناسبَه تقديمُ (عليم) على (حكيم).

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/51.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/336، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/169.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 263.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الحُجَّة) و(الآية) و(الدَّليل) و(البُرهان):

"البرهانُ لا يكون إلَّا قولًا يشهدُ بصحَّةِ الشَّيءِ"[1]، فهو مُختصٌّ بكونِهِ قولًا، و"الآيةُ هي العلامةُ الثَّابتةُ من قولِك: تأيَّيْت بالمكان؛ إذا تحَبَّست به، وتثبَّت"[2]، و"الدّلالةُ عند شيوخِنا ما يؤدِّي النَّظرُ فيهِ إلى العلمِ"[3]. أمَّا الحجَّةُ فهي الاستقامةُ في النَّظرِ والمضيِّ فيه على سننٍ مستقيمٍ، من ردِّ الفرعِ إلى الأصلِ، وهي مأخوذةٌ منَ المحجَّةِ؛ وهي الطَّريقُ المستقيمُ، وهذا هو فعلُه المستدلُّ، وليس منَ الدَّلالَةِ في شيءٍ؛ والحجَّةُ مُشتقَّةٌ من معنى الاستقامةِ في القصدِ، تقولُ: حجَّ يحجُّ إذا استقامَ في قصدِه[4]، فقولُه جلَّ شأنُه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ المرادُ طريقةُ الاستدلالِ، فاستعملَ لفظَ (الحجَّة) للإشارة إلى الطَّريقةِ الَّتي استدلَّ بها إبراهيمُ، وليس إلى الدَّليلِ الواحدِ الَّذي قدَّمَهُ، ولكنَّ المرادَ الكيفيَّةُ، فلذا عبَّرَ بالحجَّةِ دونَ غيرِها.

إيثارُ لفظِ (حجّتنا) للإشارةِ إلى طريقةِ الاستدلالِ، لا إلى الدَّليلِ الواحدِ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 71.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 71.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 69.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 70.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي عشر، سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 11 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-63-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 11 : سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-63-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9795022 بتاريخ 2023/12/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»